إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت (٢)

علمانية المدفع والإنجيل

التحالف غير المقدس بين المدفع العلماني والإنجيل المنصرين

المفكر الإسلامي
الدكتور محمد عمارة



مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

علمانية المدفع والإنجيل

التحالف غير المقدس بين المدفع العلماني والإنجيل التنصيري

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف : ٨]

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

(٢)

علمانية المدفع والإنجيل

التحالف غير المقدس بين المدفع العلماني وإنجيل المنصرين

المفكر الإسلامي

الدكتور محمد عمارة





١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٦٦٤ / ٢٥ / ١٢ / ٢٠٠٧م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عمارة ، محمد
علمانية المدفع والإنجيل : التحالف غير المقدس بين المدفع العلماني والإنجيل التنصيري / محمد عمارة . - الإسماعيلية : مكتبة الإمام البخاري ، ٢٠٠٧م .
٨٠ ص ؛ ٢٠ سم (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ؛ ٢)
تدمك ٦ ٥٢ ٥٢٩١ ٩٧٧
١- الديانات المقارنة ٢٩١
أ - العنوان

مكتبة الإمام البخاري
للنشر والتوزيع
مصر - الإسماعيلية - ٤٦ شارع الجمهورية - التلاتيني - بجوار السنترال
ت ٠٦٤٣٢٤٣٧٤٣ - جوال ٠١٢٣٦٧٦٧٩٧

مقدمة

في هذا الكتاب - الذي نقدم بين يديه - دراستان :

الدراسة الأولى : عن علمانية المدفع والإنجيل ..

والدراسة الثانية : عن العلمانية بين الغرب والإسلام

ولا نجد في التقديم لهذا الكتاب أفضل من نَشْر سطور من « التقرير الرسمي » الذي وضعته لجنة من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات البريطانيين ، يرأسها البروفسور « جوردون كونواي » مستشار جامعة « ساكس » Sussx - وكان من بين أعضائها أسقف لندن ، ورئيس تحرير صحيفة « نيو ستيتسمان » وأستاذ القانون بجامعة « ساوث هامبتون » ، وممثلة عن هيئة الخدمة المدنية ، ورئيس المجلس اليهوديّ لمنع التفرقة العنصرية ، وعدد من كبار الأساتذة الجامعيين .

هذه اللجنة الرسمية التي تألفت لدراسة الموقف الغربيّ من الإسلام ... قد جاء في تقريرها الرسميّ :

« إنَّ الشائع في الثقافة الشعبية والثقافة السياسية في الغرب : أن الإسلام مصدر تهديد للدول والشعوب وللثقافة والحضارة الغربية .

وإن الفكرة السائدة : أن الإسلام تهديد رئيسيّ للسلام في العالم . وأن التعصب الإسلامي تحوّل إلى مصدر للاضطرابات والإرهاب وأنه يماثل تهديد النازية والفاشية للعالم في الثلاثينيات والتهديد

الشيوعيّ في الخمسينيات من القرن العشرين .

وإن الفكرة السائدة : أن الحرب مع الإسلام حتيمة . وأن المتعصبين الإسلاميين يزداد عددهم ، وأنهم يهدفون إلى تدمير الحضارة الغربية ، وهم سعداء لأن هذا هو « الجهاد » الذي يأمر به دينهم . وتتردد في الأدبيات الغربية عبارة : « إن قبائل أصحاب العمامات سوف تنتصر » نتيجة لرفض الغربيين الإنجاب وتزايد الحاجة إلى المهاجرين ، مما يهدد بأن تحيا الحضارة الغربية بعد ذلك بدماء غير أوربية ، وينتشر الإسلام في دول أوربا والولايات المتحدة . وقد بدأ العد التنازليّ بالسماح بتدريس القرآن في المدارس . إن الناس في الغرب يرفضون - لا شعوريًا - الانتقادات التي يوجهها المسلمون للمجتمعات الغربية وللقيم الأساسية لهذه الحضارة ، مثل الحرية ، والديمقراطية « والحداثة » وفصل الدين عن الدولة وعن السياسة . وإن تشبيه الإسلام بالشيطان ليس مقصورًا على الصحف الصغيرة ، ولكن الصحف الكبرى والكتب والمحاضرات الجامعية في الغرب تكرر عبارات الازدراء للإسلام .

وإنه من السذاجة الادعاء بعدم وجود صراع بين الغرب والإسلام اليوم ، كما كان في الماضي أيام الحروب الصليبية ، وأيام الفتوحات الإسلامية في إسبانيا ، ووصول الجيوش الإسلامية إلى

جنوب فرنسا ، وانتشار الإسلام في ألبانيا ويوغسلافيا بالغزو . وفي الوقت الحالي توجد صراعات المصالح ، ويوجد الصراع المتعلق بإسرائيل ، وبالسيطرة على البترول ، وهذه الصراعات التي تؤدي حتمًا إلى محاولة كل طرف إخضاع الآخر ، وبسببها أيضًا تتراكم المشاعر المعادية للإسلام ، ويزيد الأمر صعوبة وجود الصراع مع الإسلام في الشيشان وأفغانستان والهند ، ووجود توترات وصراعات سياسية داخلية في الدول الإسلامية ذاتها ، وينظر الغربيون إلى هذه الصراعات على أنها صراع بين الحداثة الغربية والجمود الذي يمثله الإسلام ، وحرص المسلمين على صبغ كل أمور حياتهم بالصبغة الدينية . إن العداء للإسلام حقيقة في الثقافة الغربية المعاصرة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها »[١] .

تلك سطور من هذا التقرير الرسمي الغربي .. الذي يعلن أن العداء الغربي للإسلام حقيقة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها .. وأن الإسلام هو الشيطان !! وأن المعركة ليست فقط بسبب البترول وإسرائيل .. وإنما هي بين الحداثة الغربية ـ التي تريد فَصْل الدين الإسلامي عن الدولة والسياسة ـ أي تريد فرض العلمانية على الإسلام .. وعلى المسلمين « الذين يحرصون على صبغ كل أمور حياتهم بالصبغة الدينية » .

---

(١) [صحيفة الأهرام] ـ مقال الأستاذ رجب البنا : « تقرير عن الإسلام والغرب » عدد ١٨ ـ ١١ ـ ٢٠٠٧م .

هكذا .. وفي هذا التقرير الرسميّ ، اتخذ الغرب الإسلام عدوا .. وجعله أخطر من النازية والشيوعية .. متجاهلين أن هذا الغرب ـ الذي يشكو من الإسلام والمسلمين ـ يملأ بلاد الإسلام بجيوشه وقواعده العسكرية ـ وليس للمسلمين في الغرب « عسكري مرور » ! ويملأ المحيطات والبحار الإسلامية بالأساطيل الحربية – وليس للمسلمين في بحار الغرب « سفينة صيد » ! .. وشركاته المتعددة الجنسيات والعابرة للقارات تنهب ثروات المسلمين ! .. وكنائس الغرب تسير في ركاب جيوش الغزو لتنصير ضحاياه ، الذين يضطرون لبيع عقائدهم لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء !! .

فإذا ما أراد المسلمون تحرير بلادهم .. والتماس عزتهم من دينهم .. جاء الغرب بالعلمانية التي تريد تحويل الإسلام إلى مجرد « طقوس .. وتمتمات » ، ليفرضها عليهم ـ بالمدفع والإنجيل ـ بدلاً من الإسلام الذي به يؤمنون . ذلك هو موقف الغرب تجاه الإسلام .. وهذه هي معركة العلمانية الغربية مع الإسلام .. آثرنا الإشارة إليها في التقديم لهذا الكتاب . سائلين المولى ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل منه كتيبة من كتائب « الجهاد الفكريّ » في معركة الذود عن حياض الإسلام .. إنه ـ سبحانه ـ أفضل مسئول وأكرم مجيب .

دكتور

محمد عمارة

ذو الحجة ١٤٢٨ هـ

ديسمبر ٢٠٠٧ م

علمانية المدفع والإنجيل

كأس العلمانية المسموم !

كانت العلمانية الغربية، التي عزلت السماء عن الأرض، وأحلت « العقل والعلم والفلسفة » - أي منظومة التنوير الغربي - محل « الله والكنيسة واللاهوت » ، وجعلت من الحداثة « دينًا طبيعيًا » أحلته محلّ « الدين الإلهي » ..

كانت هذه العلمانية بمثابة « كأس مسموم » التي تجرعته المسيحية الغربية، فترنحت، وأصابها الإعياء والعجز والتهميش.. وبشهادة أحد الخبراء الألمان، عالم الاجتماع والفيلسوف « جوتفريد كونزلن » ... « فلقد مثلت العلمانية تراجع السلطة المسيحية، وضياع أهميتها الدينية .. وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية .. والفصل النهائي بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية .. وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة، وسياسة بلا دين .. لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربي، وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشري، يتلاشى باطراد في مسار التطور الإنساني.. ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانا كاملاً .. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم .. بل زوال أهميته أيضًا

كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام. فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هي التي تصنع القانون، وهي التي تمنح الحرية الدينية.

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينا حلّ محلّ الدين المسيحي، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هي العقل والعلم.

لكن – وبعد تلاشي المسيحية – سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان، التي كان الدين يقدّم لها الإجابات. فالقناعات العلمية أصبحت مفتقرة إلى اليقين. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتفككت أنساقها العقلية والعلمية عدمية ما بعد الحداثة. فدخلت الثقافة العلمانية في أزمة بعد أن أدخلت الدين المسيحي في أزمة. فالإنهاك الذي أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلماني الحديث. وتحققت نبوءة «نيتشه» [١٨٤٤ - ١٩٠٠ م] عن «إفراز التطور الثقافي الغربي لأناس يفقدون نجمهم الذي فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذرات بعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئا خارج نطاقه».

وبعبارة «ماكس فيبر» [١٨٦٤ - ١٩٢٠ م] «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم».

ولأن الاهتمام الإنساني بالدين لم يتلاش ، بل تزايد ... وفي ظل انحسار المسيحية ، انفتح باب أوربا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة : من التنجيم ... إلى عبادة القوى الخفية . والخرافة ... والاعتقاد بالأشباح ... وطقوس الهنود الحمر ... وروحانيات الديانات الآسيوية ... والإسلام ... الذي أخذ يحقق نجاحًا متزايدًا في المجتمعات الغربية ..

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوربا ... ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلماني على الإنسان الأوربي ، عندما أصبح معبدها العلمي عتيقًا !! ففقد الناس النجم الذي كانوا به يهتدون : وعد الخلاص المسيحي ... ثم وعد الخلاص العلماني .. ! »[1]

تلك شهادة [illegible] على [illegible] لكأس العلمانية المسموم [illegible] والإعياء والتهميش .. فكان الفراغ الروحي الذي سقطت فيه الشعوب الأوربية .. وخاصة بعد إفلاس الحداثة [illegible]

---

(١) جونفراد كورتس [illegible]

حقائق وأرقام على أرض الواقع

وعلى أرض الواقع، واقع الحقائق والأرقام:

• فإن الذين يؤمنون - في أوروبا - بوجود إله - مجرد وجود إله - لا يتعدون ١٤ ٪ من الأوروبيين!

• والذين يواظبون على حضور القداس بالكنيسة - مرة في الأسبوع - في فرنسا - بنت الكاثوليكية، وأكبر بلادها - أقل من ٥ ٪ من السكان - أي أقل من ثلاثة ملايين فرنسي - أي أقل من نصف عدد المسلمين في فرنسا!..

• وفي ألمانيا، توقف القدّاس في ١٠٠ كنيسة من أصل ٣٥٠ كنيسة في "برلين" بسبب قلة الرواد، الأمر الذي زاد من عدد الكنائس المعروضة للبيع، وتحولها إلى أغراض أخرى، من مثل المطاعم والملاهي.. وحتى المساجد.. بسبب ارتفاع عدد المساجد في ألمانيا من ١٤١ إلى ١٨٧ في عامي سنة ٢٠٠٥ و سنة ٢٠٠٦ وحدهما، وبلغت نسبة المواليد المسلمين ١٠ ٪ من جملة المواليد في السنوات العشر الأخيرة!

• وفي إنجلترا، أصبحت أكثر من ٦٠٠ كنيسة - أي ١٠ ٪ من الكنائس الإنجليزية - رسمياً بالاعتبار زائدة عن الحاجة، ومعروضة للبيع.. في الوقت الذي يتحدثون فيه عن أن عدد المسلمين الإنجليز

المعترضين ذلك سيتحوّل في العقود القادمة على تحرّكهم [illegible].

ومع أن نسبة المسلمين في إنجلترا هي ٣% من السكان، فإن المواليد الذين أطلق عليهم اسم «محمد» سنة ٢٠٠٦م - يأتون في المرتبة الثانية بعد اسم «جاك»(١).

• وفي إيطاليا، عُثر «مادونا» في إحدى الكنائس التاريخية، بعد تحويلها إلى مطعم وملهى، وبعد تحويل المذبح إلى [illegible].

• وفي جمهورية التشيك لا يحضر القداس سوى ٣% من السكان، وتباع الكنائس التاريخية لتتحول إلى مطاعم وملاهي، ومعروض للبيع منها ١٠٠٠ كنيسة، أي نصف عدد الكنائس في جمهورية التشيك.

• وفي سنة ٢٠٠٧م أسلم ١١٤,٠٠٠ في فرنسا وهولندا وألمانيا والجزء الشمالي من بلجيكا والنمسا(٢).

وهذا الواقع [illegible] الذي صفعة العلمانية والمسيحية لأوروبا هو

---

(١) صحيفة [الحياة] [illegible] في ٨-٥-٢٠٠٧م، [illegible] [الإمارات] في ٢٧-٢-٢٠٠٧م، ومجلة [البيان] [illegible] نقلاً عن صحيفة [illegible] [illegible] في ٢١-٤-٢٠٠٧م.

(٢) صحيفة [لوبسيرفاتور] الفرنسية، نقلاً عن صحيفة [الدعوة الإسلامية] [illegible] في ١-٨-٢٠٠٧م.

لقد تحدث بابا الفاتيكان «بنديكتوس السادس عشر» بعنف في كتابه «بلا جذور: الغرب، النسبية، المسيحية والإسلام» سنة ٢٠٠٦م عن مخاوفه الثلاثة

١- انقراض الأوربيين المسيحيين - وخاصة الألمان والإيطاليين والإسبان - بسبب تحلل الأسرة، وعدم الإنجاب، وزيادة نسبة الوفيات عن نسبة المواليد

٢- وحلول الهجرات المسلمة - العربية والإفريقية - محل المسيحيين الأوربيين المنقرضين!.

٣- وأن تصبح أوربا «جزءًا من دار الإسلام» في القرن الواحد والعشرين![1].

الروح الصليبية حية ومتوقدة في مواجهة الإسلام

هكذا صنعت العلمانية المسيحية في أوربا

لكن مؤسسات الهيمنة الاستعمارية الغربية، التي صارت تدين

(١) جوزيف راتزنجر [illegible] «بلا جذور: الغرب، النسبية، المسيحية، الإسلام» طبعة نيويورك سنة ٢٠٠٦م [illegible] صحيفة [الشرق الأوسط] [illegible] في ٢٠٠٦م. و د. محمد عمارة [illegible] «الإسلام» طبعة مكتبة الشروق الدولية القاهرة سنة ٢٠٠٧م.

واللاهوت في بلادها ، وخصصت دور الكنيسة في مجتمعاتها ، فقد ظلت وفية للروح الصليبية في مواجهتها مع الإسلام والمسلمين واستمرت في استخدام الدين والكنيسة والتبشير سلاحاً في الزحف الإمبريالي على عالم الإسلام !..

فسلطاتها الاستعمارية تعمل على علمنة المسلمين ، لكسر شوكة المقاومة الإسلامية للاستعمار الغربي ، بتحويل الإسلام إلى روحانية فردية معزولة عن السياسة والاجتماع ، مع فتح الأبواب والميادين للكنائس الغربية لتنصير المسلمين ، وذلك لإتمام عملية التغريب والتبعية والإلحاق ... كي يتأبد النهب الاقتصادي والمسخ الحضاري الديني الذي هو الهدف الأول للاستعمار.

فبعد ما يقرب من أربعين عاما على انتصار الثورة الفرنسية ذات التوجه العلماني اللاديني ... وفي ... ظلت الفرنسية وكنيستها ... تجد الروح الصليبية حية ومتوقدة وحاقدة في مواجهة الإسلام وأمته وحضارته ، عند احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ م .

ويحكي رفاعة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ ١٨٧٣ م] - وكان شاهد عيان يومئذ بباريس ... كيف « أن المطران الفرنسي الكبير » لما سمع بأخذ الجزائر [أي احتلالها

سنة ١٨٣٠ م] ـ ودخل الملك « شارل العاشر » [١٧٥٧ ـ ١٨٣٦ م] الكنيسة يشكر الله على ذلك ـ [!!] جاء إليه المطران ليهنئه على هذه النصرة ، ومن جملة كلامه ـ ما معناه ـ إنه يحمد الله على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية ، ومازالت كذلك » [1].

فروح الصليبية حاضرة وحاقدة في مواجهة الإسلام وأمته وعالمه وهي توحد الدولة والكنيسة ، في ظل العلمانية ، كما كان الحال في العصور الأوربية الوسطى ، عندما تكون المواجهة مع الإسلام .

وبعد قرن من الزمان على احتلال فرنسا الجزائر احتفلت فرنسا العلمانية بمرور قرن على احتلالها لهذا البلد المسلم سنة ١٩٣٠ م ويومئذ لم تنس فرنسا الروح الصليبية المعادية للجزائر المسلمة ، والحاقدة على إسلام الجزائريين فلخص أحد كبار الساسة الفرنسيين في مهرجانات هذه الاحتفالات ، فقال :

« إننا لن ننتصر على الجزائر ماداموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية . فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم ، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم » !

(١) رفاعة الطهطاوي [الأعمال الكاملة] ج ٢ ص [illegible] دراسة وتحقيق د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

وخطب سمسي جر، فقال : « لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن ، فلقد قام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون ، ومع ذلك خرجوا منه . ألا فلتعلموا أن معنى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار » !!

كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية - بهذه المهرجانات - فقال : « إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر ، وإن عهد الصليب قد بدأ ، وإنه سيستمر إلى الأبد ... وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدًا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل » !![1]

ولقد فضح المسلمون الجزائريون - في تجربتهم مع الاستعمار الفرنسي - كيف « أن موقف البورجوازية الفرنسية هذا هو مدعاة للعجب ، فإن هذه البورجوازية نفذت حكم الإعدام في القسس ، وأحرقت الكنائس ، وحاولت محو الدين المسيحي في فرنسا المسيحية ، أما في الجزائر ، فقد اتخذت مسلكًا مخالفًا ، فحولت المساجد إلى كنائس ومخدت المسيحية ، واستخدمت أموال المسلمين لتنصيرهم ! وهكذا أحيت الروح الصليبية عندما

(١) نقلًا عن : ... عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ... سلسلة [من أعلام الإحياء الإسلامي] ص ١٢٤ ، ١٢٥ طبعة مكتبة الشروق الدولية ... القاهرة سنة ٢٠٠٦ م

رفعت علم المسيحية ضد الإسلام في الوقت الذي ظلت تسخر فيه من المسيحية والإسلام في آن واحد »(1)

وعلمانية أوروبا [illegible] المسيحية في بلادها [illegible] في مطاردة الإسلام [illegible] الإمبريالي على بلاد المسلمين(2)

صور من [illegible]

[illegible]

* [illegible]

دعم الاحتلال ، [illegible]

صنع ذلك بواسطة إرساليات التنصير النصراني ومدارسها وجامعاتها ومؤسساتها الثقافية [illegible] الإعلامية في [illegible] العربي [illegible] في كل وقت [illegible]

(1) محمود شاكر [illegible]

(2) د. محمد عمارة [illegible] ص ٤٧٠ [illegible] ٢٠٠٦م

تمحي [illegible] مسيحية أوروبا(1).

* وعندما عقدت الكنائس الأمريكية مؤتمرها التنصيري الشهير مؤتمر كولورادو في مايو سنة ١٩٧٨م، قُدّمت فيه تجارب تنصيرية جديدة على الإسلام، فنشرت في وثائق هذا المؤتمر

« إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية، والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً، ونحن بحاجة إلى مئات المراكز لفهم الإسلام، وللاختراق في صدق ودهاء [...] ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين ولذلك، فعلى مديري إرساليات أمريكا الشمالية وقادة المنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعضها المتصل للوصول إلى المسلمين. لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة في العالم الإسلامي. إن نصارى البروتستانت في الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا –

(1) [illegible] ١٨٩٨ [illegible]
القاهرة سنة ٢٠٠٧ م

مهمكون بصورة عميقة في عملية تنصير المسلمين . ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها ، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم . وعلى المواطنين النصارى في البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معاً ، بروح تامة ، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين . إذ يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصرين مقبولين من داخل مجتمعاتهم ويفضل النصارى العرب في عملية التنصير . إن تنصير هذه البلاد سيتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنائس المحلية ، ويتم ذلك بعد تكوين جالية محلية نصرانية قوية » [1]

* وفي سبيل اختراق العالم الإسلامي ، ستفيد هذه [illegible] تنصير المسلمين ، تقرب هذه الكنائس وتقدم « [illegible] الصليبية » ، [illegible] عن وضع [illegible] ، لاستخدام المعلومات والمعطيات لتنصير الفقراء والمحتاجين المسلمين !! والاستعمار الغربي [illegible] وحكوماته العميلة [illegible] ينهب ثروات

(١) [التنصير - خطة لغزو العالم الإسلامي] الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو ص ٤٥٢ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٧٨٤ ، ٧٩٠ ، ٥٣ ، [illegible] ٨٤٥
طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي [illegible] م

المسلمين ، ويحول جماهيرهم إلى فقراء ومعدمين ... والكنائس
الدول الاستعمارية - تحت حماية المدافع الاستعمارية - تستخدم
كسرة الخبز وجرعة الدواء لتحويل هؤلاء الفقراء المعدمين عن دين
الإسلام إلى النصرانية الغربية !

وهكذا تقوم وتتم التحالف غير المقدس بين « المد العلماني »
مع « الزحف التنصيري » !

نعم ، لقد عبّرت وتعهدت هذه الكنائس بهذه « المسكنة المقدسة »
فكتبت في وثائق مؤتمر « كولورادو » :

« لكي يكون هناك تحوّل إلى النصرانية ، فلابدّ من وجود أزمات
ومشاكل وعوامل تدفع الناس - أفرادًا وجماعات - خارج حالة
التوازن التي اعتادوها ! وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل
طبيعية ، كالفقر والمرض والكوارث والحروب ، وقد تكون
معنوية ، كالتفرقة العنصرية ، أو الوضع الاجتماعي المتدني
وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات
كبيرة إلى النصرانية ! ولذلك ، فإن تقديم العون لذوي الحاجة
قد أصبح أمرًا مهمًا في عملية التنصير !! وإن إحدى معجزات
عصرنا ، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت
موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيري ، فأصبحت

أكثر تقبلاً للنصارى »[1]

« فالمدفع » العلماني الاستعماري الغربي يجتاح مواقع الثروات في عالم الإسلام، لنهبها.. وفي سبيل ذلك يصنع الكوارث التي تصيب الشعوب الإسلامية.. ثم يفتح الأبواب تحت قهر المدافع لإرساليات التنصير كي تقدم العون والمساعدة باسم يسوع المسيح، كي يبيع الفقراء والمعدمون إسلامهم لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء!!

* ولقد وضع هذا المخطط.. وهذه « الميكيافيلية » الصليبية في الممارسة والتطبيق

• فهذه الكنائس الأمريكية، التي تتحكم في القوة الأمريكية الغربية والأوروبية.. بواسطة « اليمين المسيحي » و« اليمين الديني » و« المحافظين الجدد ».. قد نشرت أربع منظمات كنسية تنصيرية.. التي أقامت في تلك البلاد « قاعدة دينية تنصيرية » إلى جوار القواعد العسكرية الأمريكية التي أقامتها فيها منذ سنة ١٩٤٥ م.

وتحدثت عن هذه « القاعدة التنصيرية ».. وهي « كنيسة صامويل »، التابعة لليمين الديني الأمريكي.. رأس حربة في التنصير العالمي.

---

(١) المصدر السابق. ص ٤٢١، ٨٣٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٤٠

والعالم الإسلامي على وجه الخصوص، حتى أن عدد المنصرين الكوريين قد بلغ المرتبة الثانية بعد المنصرين الأمريكان على النطاق العالمي[1]. وبالإدارة الأمريكية - المفترض أنها علمانية - تراقب عمل المنصرين الكوريين والجنود الكوريين مع عمل المنصرين الأمريكيين والجنود الأمريكيين حيثما وجد النفوذ الأمريكي في بلاد المسلمين من العراق إلى أفغانستان، وحتى في مناطق النفوذ والهيمنة الأمريكية.

ولإيضاح هذه الحقيقة - التي يجهلها أو يتجاهلها الكثيرون - فإن هذا التقرير الكوري للكنائس الأمريكية "كنيسة سايمن Church Saemmul" تقف عند التبشير بالكوريين وتحويلهم عن دياناتهم البوذية والكونفوشية لحساب ... وربما شاركت مع أمريكا في التبشير بعد ذلك. فأرسلت ٠٠٠ و ١٦ مُنصِّر كوري إلى الدول الآسيوية، وكان نصيب البلاد الإسلامية ٢٥ % من هؤلاء المنصرين الكوريين[1].

ولقد كان نصيب أفغانستان ملحوظًا في هذا الجهد التنصيري المدعوم أمريكيًا. الأضحى في أفغانستان سنة ٢٠٠١م قد قضى على مقومات الأمن المدني والصحي للشعب الأفغاني، ولم يبق في تلك البلاد سوى زراعة

للمخدرات – التي تضاعفت صادراتها ثلاث مرات !

وفي ظلّ هذا الفقر المدقع – الذي صنعته [illegible] الأمريكية – أخذت « العلمانية » تمهد لـ التبشير بالإنجيل « بالإنجيل » مع كسرة الخبز وجرعة الدواء .

وشهيرة تلك الأزمة التي تفجرت « بطالبان » في ١٩ يوليو سنة ٢٠٠٧ م ، عندما أسرت حركة طالبان « ٢٣ » مُنصِّرًا كوريًا كانوا يعملون على التبشير بالمسيحية في أفغانستان التي ليس في شعبها نصراني واحد ! ويحملون لافتاتهم يقولون « إنني الآن أفهم حب يسوع هاللويا إنني الآن نظيف – [وكأن الإسلام هو القذارة] وقد أصبحت شخصا آخر . آمين » ! .

وعندما قامت حركة طالبان بإعدام أحد هؤلاء المنصّرين – القس « باي هيونج كو » Pastor Hyan Kuac في ٢٦ يوليو سنة ٢٠٠٧م ثم أفرجت عن اثنين [illegible] بعد أن كان [illegible] .

وبعد تعهُّد الحكومة الكورية الجنوبية – في ٢١ يوليو سنة ٢٠٠٧م – بمنع سفر المنصّرين إلى أفغانستان ، وبسحب جنودها من هناك مع نهاية سنة ٢٠٠٧ م . كذلك تعهدت الحكومة الأفغانية أن تحسب أحدًا من هؤلاء المنصرين الكوريين ، المتدفقين على أفغانستان في حماية [illegible] الأمريكية الغاصبة

وقد مدّ هذا النشاط الكوري التنصيري إلى بلاد إسلامية كثيرة ، منها فلسطين والسودان وباكستان وتركيا والشيشان وداغستان .. وقد قامت الحكومة الروسية بطرد للمنصِّر الكوري « هري ي » من الشيشان وداغستان سنة ٢٠٠٣م .. (١) .

بل لقد أُسست هذه الكنيسة الكورية . كنيسة صابهل . قرابة سبعين « متطوعًا » في مصر . بلد الأزهر الشريف ، وذلك للعمل في عشر محافظات مصرية . تحت ستار العمل في مجالات « التكوين المهني والكهرباء والكمبيوتر والتمريض وتعليم اللغة الكورية » للمسلمين المصريين » (٢) .

وقد مد نشاط هؤلاء المنصِّرين الكوريين إلى العراق في ظل الاحتلال الأمريكي سنة ٢٠٠٣م ، وإلى مواطن تجمعات اللاجئين العراقيين في الأردن وغيرها .. حتى لقد فضحت سلوكهم هذه الصحيفة الكاثوليكية في العراق « ... » في ١٩ مايو سنة ٢٠٠٥م قائلة : « إنهم أتوا لتحويل مسلمين فقراء عن دينهم باستخدام بريق المال والسيارات الفارهة » .

---

(١) د. محمد سيد سليم . صحيفة الأهرام القاهرة في ٢ - ٩ - ٢٠٠٧م

(٢) المرجع السابق في ١٠ - ٩ - ٢٠٠٧م

وأشار إلى ما يحدثون بنشاطهم التنصيري من « تدمير التواصل الاجتماعي والديني بين مكونات الشعب العراقي »

ولقد أسَرَت المقاومة العراقية عددًا من هؤلاء المنصّرين الكوريين في يوليو سنة ٢٠٠٤ م، [illegible]

[illegible] في يونيو سنة ٢٠٠٤ م.

* أما الدور التنصيري الأمريكي المباشر في العراق فحدّث عنه ولا حرج!

فعندما قادت أمريكا [illegible] في مارس سنة ٢٠٠٣ م، [illegible] « [illegible] »

فهي حرب [illegible]

[illegible] والعشرين [illegible]

وفي سبيل ذلك [illegible] الأمريكية مؤسسات

[illegible]

أوصاف « الأصولية » و « الإرهاب » و « الأشرار ».

وقد نشرت مجلة « نيوزويك » الأمريكية [illegible] على

العراق. عدد ١١ - ٣ - ٢٠٠٣م - أن الرئيس الأمريكي « بوش »

[illegible] على العراق « هي حرب

[illegible]

عادلة ، وفق المفهوم المسيحي . كما شرحه القديس أوغسطين [٣٥٤ ـ ٤٧٠ م] في القرن الرابع ، وكما فصله كل من القديس توما الإكويني [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤ م] ومارتن لوثر [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ م] وآخرون ، وأنه ـ أي بوش ـ قد [illegible] كلمة « الأشرار » التي ألصقها على العراق وأفغانستان وإيران ـ وكل قوى الممانعة الإسلامية ـ من سفر المزامير ! .. وأنه يبدأ عمله صباح كل يوم بالمطالعة ـ بناء على توصية القس « بيل جراهام » في كتاب القس « أوزوالد شامبرز » ـ الذي مات سنة ١٩١٧م وهو يعظ الجنود البريطانيين والأستراليين بالزحف على القدس لانتزاعها من أيدي المسلمين !

كما نشرت المجلة ـ الأمريكية ـ في [illegible] عدد [illegible] « مؤتمر المعمداني الجنوبي » وقساوسة مسيحيين من أمثال « [illegible] » [illegible] « [illegible] » [illegible] العراق ، [illegible] المسلمين فيه ! .. وبعبارة « نيوزويك » : فإن هؤلاء المبشرين الإنجيليين لا يخفون رغبتهم في تحويل المسلمين إلى المسيحية ، حتى ـ لا بل لاسيما ـ في بغداد » (١) .

ولقد نشرت « نيويورك تايمز » في عددي ٥ ، ٦ ـ ٤ ـ ٢٠٠٣م

---

(١) [نيوزويك] في ١١ ـ ٣ ـ [illegible]

ـ أي إبان الغزو للعراق ـ أن جيشا من المنصرين الأمريكيين قد صحب الجيش الأمريكي الزاحف على العراق من الكويت وأن « من بين تلك الجماعات التبشيرية المصاحبة للجيش الأمريكي في حربه على العراق مبشرين تابعين للكنيسة المعمدانية والكنيسة المنهجية .. حيث ذكر ممثلوا الكنيسة المعمدانية أنه منذ بدأت الحرب الأمريكية على العراق تطوع نحو ٨٠٠ مُبَشّر من خلال مجلسها التبشيرى لتقديم الدعم الروحي والمادي لشعب العراقي باسم يسوع المسيح! ومن بين هؤلاء المبشرين « فرانكلين جراهام » – الذي دشّن حفل تنصيب « بوش » رئيسا لأمريكا - والذي وصف الإسلام بالشر والعنف والإرهاب! ووالده « بيلي جراهام » - الذي وصف نبي الإسلام بأنه إرهابي ووثني!

ولقد أعلن « فرانكلين جراهام » ـ وهو بالكويت ، يهم بدخول العراق ، في ركاب الجيش الأمريكي ـ « لقد جئت إلى هنا تمهيدا لدخول العراق ، فرغم أن نسبة المسلمين في العراق تتشكل ٩٧ ٪ من إجمالي تعداد السكان ، إلا أننا يجب ألا ننسى أن المسيحية سبقت الإسلام في دخول العراق! إنني هنا لدعم مسيحيي العراق! وعندما نقدم الدواء أو الطعام لغير المسيحيين

فإننا لا نفعل ذلك باسمنا ، ولكننا نفعل ذلك باسم ابن الرب !!

ولقد تحدثت « نيويورك تايمز » عدد ٦ - ٤ - ٢٠٠٣ م عن العقيدة المسيحية الصهيونية الموجهة لأركان الإدارة الأمريكية - التي شنت الحرب على العراق - والتي أعلنت « الحملة الصليبية » ضد الإسلام في ١٦ - ٩ - ٢٠٠١ م - فقالت الصحيفة الأمريكية : « إن السيد « كولن باول » يصف نفسه بأنه عاشق للطقوس الكنسية المسيحية الصهيونية . والسيدة « كونداليزا رايس » كان والدها قسيسًا بإحدى كنائس المسيحية الصهيونية بولاية ألاباما . و « ديك تشيني » يؤمن بنفس المنهج التبشيري للرئيس جورج بوش ، والقائم على فكرة أن الطريق إلى التبشيرية يبدأ بالمدفع والإنجيل !! ونفس الأمر ينطبق على وزير الدفاع « دونالد رامسفيلد » ، في حين تؤثر ديانة « بول وولفويتز » - اليهودية - على توجيهاته السياسية . مما دفع بعض المراقبين للقول : « إن السياسة الخارجية للإدارة الأمريكية الحالية تتم صياغتها والتعبير عنها طبقًا للمعتقدات التبشيرية ، وتقسيم العالم إلى مؤمنين ووثنيين » !![1]

---

(١) [نيويورك تايمز] في ٦ - ٤ - ٢٠٠٣ م نقلا عن صحيفة [الأسبوع] [illegible] في ١٤ - ٤ - ٢٠٠٣ م .

هكذا استخدمت — وتستخدم — العلمانية الغربية « المدفع والإنجيل » في مواجهة الإسلام والمسلمين!

الغرب هو الذي يعلن الحرب على الإسلام وحضارته

إنّ الغرب ، الذي زرع — ويزرع — العلمانية في المجتمعات الإسلامية ، بواسطة سلطات الاستعمار المباشر ، وبواسطة المتغربين العلمانيين من أبناء جلدتنا ، الذين صنعهم على عينه في بلادنا .. هو الذي أعلن الحرب على الإسلام ، عندما جعله العدو « الخطر الأخضر » الذي أحله محل « الخطر الشيوعي الأحمر » ، فور سقوط الشيوعية وأحزابها وحكوماتها أوائل سنة ١٩٩١ م . لا لشيء إلا لاستعصاء الإسلام على العلمنة ، ومن ثمّ استعصائه على التغريب والذوبان في النموذج الحضاري الغربي ، ورفضه — من ثمّ — الاستسلام للإمبريالية الغربية ..

لقد أعلن هذا الغرب الإمبريالي الحرب على الإسلام وأمته وحضارته وعالمه كي يجرعه « كأس العلمانية المسموم » ، بعد أن همش المسيحية الغربية وأصابها بالهرم والإعياء والإفلاس

وعن هذه الحقيقة كتبت مجلة [شئون دولية] - الصادرة في « كمبردج » بلندن - عدد مايو سنة ١٩٩١ م تقول : « لقد شعر

الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحلّ محلّ التهديد السوفيتي وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول !.

إن أوربيين كثيرين يتساءلون عما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة ؟ أم أن رسوخ الإسلام في المجال السياسي والاجتماعي يجعله يرفض القول بالمبدأ المسيحي (العربي الذي يُميّز بين ما لله وما لقيصر ، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يُعَوّل عليها في ديمقراطية علمانية ؟

إن النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع ، والتي تقول إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوض الإيمان الديني ، صالحة على العموم . لقد تناقص التأثير السياسي والسيكلوجي للدين . عمليًا في كل المجتمعات ، وبدرجات متفاوتة ، وأشكال مختلفة . لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام حدًا من هذا ، فلم تتم أي علمنة في عالم الإسلام .

إنَّ سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية ، هي بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت . إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعًا ما . والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحًا

في ظل مجموعة مختلفة من النظم السياسية ، فهو صحيح في ظلّ نظم راديكالية (ثورية) اجتماعيًا ، وهو صحيح أيضًا في ظلّ النظم التقليدية ، وهو صحيح بالنسبة إلى النظم التي تقف بين النوعين .

إنّ وجود تقاليد محلية للإسلام ... قد مكّن العالم الإسلامي من أن يفلت من المعضلة التي أرّقت مجتمعات أخرى أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال : معضلة إضفاء الطابع المثالي على الغرب ومحاكاته ... لقد امتلك الإسلام مقومات الإصلاح الذاتي ، باسم الإيمان المحلي ، وذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة ..

إنّ الإسلام ، من بين الثقافات الموجودة في الجنوب ، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة ، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلي وحقيقي للمجتمعات يسودها مذهب اللاأدرية وفتور الهمة واللامبالاة ، وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات ماديًا ، فضلاً عن هلاكها المعنوي .. » (١) .

وعن ذات الحقيقة ... حقيقة استعصاء الإسلام على العلمنة و [illegible]

(١) مجلة [شئون دولية] [illegible]
[illegible]

النموذج الغربي . وعداء الغرب للإسلام بسبب هذه الممانعة لتذويبه ولأكبده . يقول المفكر الاستراتيجي الأمريكي « فوكوياما » : « إنّ الحداثة التي تمثلها أمريكا وغيرها من الديمقراطيات المتطورة ، ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية . والمؤسسات التي تجسد مبادئ الغرب الأساسية ستستمر في الانتشار عبر العالم وهذه القيم والمؤسسات تلقى قبولاً لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية ، إن لم نقل جميعها . ولكن السؤال هو – هل هناك ثقافات أو مناطق في العالم ستقاوم ، أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث – بهذا المعنى الأمريكي والغربي ؟[1] »

ثم يجيب « فوكوياما » على هذا السؤال الذي طرحه فيقول :

« إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة فالعالم الإسلامي يختلف عن غيره من الحضارات في وجه واحد مهم . فهو وحده قد ولّد تكرارًا خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة ، ترفض لا السياسات الغربية فحسب . وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة : العلمانية نفسها . وإنه فيما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكي وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية ، وتود تقليدها ـ لو أنها فقط استطاعت

ذلك . فإن الأصوليين المسلمين يرون في هذه الاستهلاكية دليلا على الانحلال الغربي » ..

ويعترف « فوكوياما » [illegible] الاستعصاء الإسلامي على [illegible] ،

[illegible] الإسلامية [illegible] الاستهلاكية [illegible] في [illegible]

حرب [illegible] على الإسلام [illegible]

الغرب [illegible] « الإرهاب ! » [illegible] ، إن المسألة ليست ـ ببساطة ـ

حربًا على الإرهاب كما تظهر الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم

- [؟ ؟] وليست المسألة الحقيقية كما يحاول الكثير من

المسلمين - هي السياسة الخارجية الأمريكية في فلسطين ، أو

نحو العراق . إن الصراع الأساسي الذي نواجهه ، [illegible]

أوسع بكثير ، وهو مهم ، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من

الإرهابيين ، بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين ، ومن

المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الديني جميع القيم الأساسية

الأخرى . إن الصراع الحالي ليس ـ ببساطة ـ معركة ضد

الإرهاب . ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي

تقف ضد الحداثة الغربية ، إنه يشكل تحديًا أيديولوجيًا هو « في

بعض جوانبه » أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية

[illegible] الإسلام [illegible]

للمجتمع الإسلامي أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع
سلمي مع محتليه، ويحدد فيه ما يتعلق بحقه الأساسي حول الدولة
العلمانية أم لا؟!

فهدف الحرب الصليبية الغربية المعلنة على الإسلام وأمته وحضارته
والتي تقودها أمريكا تحت [illegible] ما يعرف " فوكوياما " .. ما يسمى
بالإرهاب .. وإنما هدفها الحقيقي والأعمق هو استئصال الإسلام
على العلمانية ورفضه محاولة الاستسلام لها عبر ..

ترويج الغرب العلماني في استخدام
الصليبية ضد الإسلام (١)

وقد كان هذا هو ترويج الغرب العلماني في استخدام الصليبية
سلاحًا في مشروعه الإمبريالي ضد العالم الإسلامي وهو تاريخ قديم
قدم المشروع الإمبريالي الغربي

- الذي استخدم النصرانية الرومانية والبيزنطية لقهر النصرانية
الشرقية، لعدة قرون قبل ظهور الإسلام، وفتوحات الإسلامية

- والذي استخدم الحملات الصليبية مدة قرنين من الزمان [٤٨٩ -
٦٩٠هـ، ١٠٩٦ - ١٢٥٦م] لإعادة اختطاف الشرق من الإسلام

فإن هذه المرحلة الصليبية قد [illegible] في [illegible]

(١) [ترويج [illegible]

الغربية والسياسات الغربية والممارسات الغربية ومدى تفشي الغربية المفترض عقلنتها – في العقود الأخيرة . لأسباب عديدة منها الصحوة الإسلامية التي أعادت الإسلام ليكون « الفكرية والأيديولوجية » التي يرجع إليه المسلمون لإصلاحات الغربية بعد سقوط الخيارات والنماذج الغربية في المجتمعات الإسلامية

وعن هذه الحقيقة الهامة – حقيقة تزايد المد الديني وتأثير الديني لدى المؤسسات السياسية الغربية – تقول مجلة [شئون دولية]

« إنه من الواضح أن الدين أصبح يقتحم الشئون الدولية بصورة متزايدة . أو بالأحرى يعيد إدخال نفسه فيها

ويصعب أن تكون مصادفة أن الديمقراطيين المسيحيين في كل بلد أوربي موجودون على الدوام بين أشد أنصار الوحدة الأوربية حماسًا . أو أن القادة القوميين الثلاثة الذين أرسوا أسس الاتحاد الأوربي الحالي . كونراد أديناور [١٨٧٦ ـ ١٩٦١ م] وألسيد دى جاسبري [١٨٨١ ـ ١٩٥٤ م] وروبرت شومان [١٨٨٦ ـ ١٩٦٣ م] ـ كانوا جميعهم من الديمقراطيين المسيحيين . ومن الكاثوليك المتحمسين . إن هناك انطباعا قويا بأن الإشارات إلى المسيحية ـ في سياق دولي ـ قد تضاعفت في وسائل الإعلام الغربية . ولاشك أن السبب الرئيسي في هذا هو التغيرات التي

وقعت في الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية. ففي بعض بلدان أوربا الشرقية لعبت الكنيسة دورًا مهمًا في إحداث التغيير السياسي (بولندا بصورة واضحة، وألمانيا الشرقية بصورة غير متوقعة، بدرجة أكبر، وكذلك تشيكوسلوفاكيا إلى حد ما. وفي الاتحاد السوفيتي بدأ التغيير من أعلى، وعلى يد المثقفين العلمانيين، لكن دور المثقفين المسيحيين في مقاومة النظام، وتقديمهم لأدائه لم يكن بحال من الأحوال أمرًا تافهًا. والأمر الذي كان مدهشًا حقًا هو السرعة التي اتجه بها المجتمع والدولة على حد سواء إلى الكنيسة في بحث يائس عن شيء يملأ الفراغ الأخلاقي المروع الذي كشف عنه انهيار الأيديولوجية الشيوعية. وكان لهذه الأحداث تأثير مدهش على المواقف الغربية، فبدلاً من الكتلة السوفيتية اكتشف زملاء أوربيين يشاركوننا ميراثنا الحضاري والديني

وكان لابد لأوربا التي اعتادت أن تعرّف نفسها من خلال تحديد الآخر، أن تبحث عن آخر جديد يحل محلّ الاتحاد السوفيتي والمعسكر الشرقي بعدما انهارت أيديولوجيته، وكان هذا الآخر هو الإسلام ... إننا في وقت يسود فيه نضال قوي بتضاعف الإشارات إلى المسيحية في السياق الدولي ...»

هكذا حللت المجلة الأكاديمية الرصينة هذا التغير الهام

متغير عودة العامل الديني إلى السياسات العربية من جديد وبصورة ملحوظة ومؤثرة ومتزايدة .. بعد أن « كان المجتمع الدولي للقرن العشرين تسوده الثقافة العربية الحديثة . وواحدة من سماتها العلمانية » [١] .

الخلاصة

وخلاصة هذا التحليل هي :

١. عودة العامل الديني إلى الدخول والبروز والفعل والتأثير في السياسات العربية .

٢. دور المسيحية - والأحزاب المسيحية الديمقراطية - في تأسيس الوحدة الأوربية .

٣. دور الكنائس الأوربية في إسقاط الشيوعية ، وعودة أوربا الشرقية إلى الحضارة الغربية « المسيحية - اليهودية » .

٤. عودة الدين كي يصبح « معيارًا » في تعريف أوربا لنفسها وللآخر « الآخر » .

٥. دور هذه العوامل والمسار الديني في اعتبار الغرب للإسلام عدوًّا أخذ محل العدو الشيوعي .. أي عودة النزعة الصليبية من جديد

---

(١) [شؤون دولية] مصدر سابق

إلى العلمانية الدولة ، وخاصة في المواجهة الغربية مع الإسلام.

• ففي الحقبة الرومانية والبيزنطية تجلّت الوحدة بين « القيصرية » و« الكنيسة » في مواجهة الشرق ونصرانيته.

• وفي الحقبة الصليبية – بالعصور الوسطى الأوربية – توحد « أمراء الإقطاع الأوربيون » مع « الكنيسة » و« البرجوازية التجارية » ضد الإسلام والشرق الإسلامي.

• واليوم .. وعقب سقوط « الخطر الشيوعي الأحمر » وتوحد الغرب في إطار « الحضارة المسيحية – اليهودية ». وإحلال الغرب الأمريكي الإسلام وصحوته عدوًّا ومحل « الخطر الأخضر » تعود الوحدة بين مؤسسات الهيمنة الغربية في المواجهة مع الإسلام .. وفي مقدمة هذه المؤسسات « المؤسسات السياسية » و« الكنائس الغربية ».

• وفي ضوء هذا المتغير – الذي يجب أن يأخذ حقه في الدرس والتحليل – نفهم الحديث عن وجوب جعل أوربا « ناديا مسيحيا » مغلقا في وجه تركيا المسلمة .. وهو موقف يتبناه السياسي الفرنسي « جيسكار ديستان » واضع دستور الاتحاد الأوربي .. ونفهم موقف الفاتيكان الرافض لدخول تركيا إلى هذا « النادي المسيحي ».

• ونفهم – كذلك – تخلي العلمانية الفرنسية عن حيادها إزاء الأديان ، لتقف – في مسألة الحجاب – ضد الشعائر الإسلامية على

وجه الخصوص [illegible] ومنهم إعلان بابا الفاتيكان «بنديكتوس السادس عشر» عن مخاوفه الثلاثة:

١ - انقراض المسيحيين الأوربيين ديموجرافيًا.

٢ - وحلول الهجرات الإسلامية العربية والإفريقية محل المسيحيين الأوربيين المنقرضين.

٣ - وتحول أوربا إلى جزء من دار الإسلام في القرن الواحد والعشرين»!(١).

• ومنهم اتحاد المؤسسات الغربية، والجماعات السياسية والدينية على التخويف من الإسلام [illegible] مع تقارير المنظمات الحقوقية [illegible] المسلمين في الغرب، والتي تعكس التمييز العنصري ضدهم [illegible] ومع حملات الإعلام وثقافته التي تشيع الكراهية ضد الإسلام والمسلمين [illegible] والتي تمارسها المؤسسات السياسية الغربية [illegible] التي [illegible] تصريحات كبار القادة المحرضة على الإسلام والمسلمين.

• و[illegible] إيطالي [illegible] جاكوموبيفي [illegible] يدعو إلى «استئصال المسلمين من أوربا»!.

فصورة أوربا والغرب [illegible] والعالم بصوره [illegible] لا يمكن أن تكون متعددة الديانات [illegible] «فإما أن تتحول أوربا إلى مسيحية

(١) [illegible] الغرب [illegible] المسيحية والإسلام [illegible]

فورًا ، وإلا ستكون إسلامية مؤكدًا »[1].

• ويكرر ديفيد « بوب جونز » [illegible] الفاتيكان ، ومسئول المجلس الفاتيكاني للثقافة يعلن : « إن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوربا وللغرب عمومًا »[2].

• والمونسنيور « جوزيبي برناردينى » يقول – في حضرة بابا الفاتيكان – « إنّ العالم الإسلامي سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط ، وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية ، بما في ذلك روما عاصمة المسيحية ، فكيف يمكننا ألا نرى في ذلك برنامجًا واضحًا للتوسع ، وفتحًا جديدًا »[3].

• والحكومات الغربية – التي كانت حارسة محايدة بين الأديان – غدت حامية لمهاجمي الإسلام ورموزه ومقدساته ، تحت ستار « حرية التعبير » ! – وبعد أن كانت شديدة الحذر ضد الحروب [illegible] الجديدة ، رأيناها تفسح المجال للمظاهرات التي تمول هذه الحروب [illegible] – في العديد من عواصمها ومدنها الأوربية

---

(١) صحيفة [العالم الإسلامي] مكة في ٦ – ١٠ – ٢٠٠٠ م

(٢) صحيفة [الشرق الأوسط] [illegible] في [illegible] ١٩٩٩ م

(٣) المرجع السابق في ١٣ – ١٠ – ١٩٩٩ م

في سبتمبر سنة ٢٠٠٧م [illegible]

هكذا يتصاعد التحالف العلماني الصليبي العربي ضد الإسلام والمسلمين .. ويريد [illegible] في مواجهة الصحوة الإسلامية والصحوة الإسلامي [illegible] في مؤسسات عربية [illegible] وتسعى الإمبريالية الغربية - في سبيل استعمارها الجديد [illegible] الإسلام [illegible] الإسلام والصحوة الإسلامية في الغرب والشرق [illegible] المسلمين [illegible] تاريخهم [illegible] أمة [illegible] ولا تحولين ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٧] صدق الله العظيم

❂ ❂ ❂ ❂

العلمانية بين الغرب والإسلام

نشأة العلمانية

مصطلح « العلمانية » هو ترجمة [illegible] شاعت بمصر والمشرق

العربي للكلمة الإنجليزية SECULARISM بمعنى الدنيوي

والعالمي والواقعي [illegible] من العالم والواقع [illegible]

« المقدس » أي الديني « الكهنوتي » [illegible] عن السماء ، و [illegible]

[illegible] ، و [illegible] ، و [illegible] ، و [illegible]

قدس [illegible] ، وثبت متغيراتها – العلمية والقانونية

والاجتماعية – ثبات الدين .(١)

وإن هذا هو معنى المصطلح ، في نشأته وملابساته الأوربية .

[illegible]

بشريعة من ورائه . فلقد كان قيام المصدر هو « العلمية » أو

« العالمانية » .. لكن صورته غير [illegible] – هي التي

قدرتها [illegible] و [illegible] والعلمانية . [illegible]

وكمذهب في المرجعية [illegible] ، لا يمكن

فهمها ومن ثم فهم الموقف الإسلامي [illegible]

---

(١) [illegible]

[illegible]

[illegible]

سنة ١٩٦٧ م

بملابسات أوربية، نشأتها في إطار الحضارة الغربية المسيحية، بحدودها الإغريقية الفلسفية، وبتراثها الروماني القانوني، وإضافة المسيحية لهذه الحدود وذلك التراث. وإذا كان التفصيل في هذه القضايا هو مما يخرج هذه الدراسة عن نطاقها ومقاصدها، فإننا نكتفي بالإشارة إلى بعض القضايا في شيء من الإيجاز

لقد ظلت المسيحية، منذ نشأتها وعبر قرون طويلة من حياتها في المجتمعات الأوربية، دينًا لا دولة، وشريعة محبة لا تقدم للمجتمع مرجعية قانونية ولا نظامًا للحكم، ورسالة مكرسة لخلاص الروح، تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وجعلت رسالة الكنيسة خاصة بمملكة السماء، لا شأن لها بسلطان الأرض ولا بتنظيم الاجتماع البشري، في السياسة والاجتماع والاقتصاد، وعلومها ومعارفها.

وعبر هذه القرون، حكمت العلاقة بين الكنيسة والدولة، أي بين الدين والمجتمع – نظرية «السيفين» Theory of the Two Swords. أي السيف الروحي، أي السلطة الدينية للكنيسة، والسيف الزمني، أي السلطة المدنية للدولة.

فلما حدث وتجاوزت الكنيسة حدود مملكة الروح ومملكة السماء، فاغتصبت السلطة الزمنية أيضًا، فضلًا عن السلطة الدينية، وثبتت متغيرات الاجتماع الإنساني ثبات الدين، فتحققت

للمجتمعات الأوربية مرحلة الجمود والانحطاط وعصورها المظلمة. وسادت في تلك المرحلة نظرية «السيف الواحد» Theory of One Sword أي السلطة الجامعة بين الديني والمدني، سواء تولاها «البابوات» الأحبار، أو الملوك الذين توجهم وباركهم البابوات. وعرف هذا النظام، في تاريخ أوربا، بنظرية الحق الإلهي للملوك Divine Right of the Kings (١).

وفي مواجهة هذا الظلام، وواقع الانحطاط الحضاري الذي أثمرته تطبيقاته – التي قدست الملوك وحكمهم [illegible] ومجتمعاتها وعلومها – كانت «الثورة العلمانية» التي فجرتها فلسفة التنوير الأوربي. وهي قد مثلت قطيعة معرفية مع فلسفة الحكم الكهنوتي، ومثلت النزعة العقلانية الحديثة على التراث الأوربي القديم وعلى عقلانية التنوير الأوربي الحديث، التي أحلت «العقل» و«التجربة» محل «الدين» و«اللاهوت».

لقد عادت «الثورة العلمانية» بالكنيسة إلى حدودها الأولى: خلاص الروح، ومملكة السماء، وجعلت ما لقيصر لقيصر من دون الله! وجعلت «العقل» و«التجربة»، دون «الدين» و«اللاهوت»، المرجع في تدبير شئون العمران الإنساني، أي عزل «السماء» عن «الأرض»

---

(١) انظر [موسوعة العلوم السياسية] إعداد أ.د. محمد [illegible] مادة ((حق الحكم الإلهي)) طبعة جامعة الكويت سنة ١٩٩٤ م.

انطلاقاً من فلسفة أن العالم مكتفٍ بذاته، تدبره الأسباب المخلوقة في ظواهره وقواه وطبيعته، دونما حاجة إلى رعاية إلهية أو تدبير شرعي نازل مما وراء الطبيعة والعالم.

فالعلمانية هي جعل المرجعية في تدبير العالم إنسانية خالصة، ومن داخل العالم، دونما تدخل من شريعة سماوية هي وحي من الله المفارق لهذا العالم.. وقد عرفت العلمانية الأوربية تيار المادي الملحد بين مؤسساته، استطاع فلاسفة من مثل هوبز HOBBES [illegible] ولوك Locke [illegible] وليبنتز Leibniz [illegible] وروسو Rousseau [illegible] ولسنج Lessing [illegible] أن يوفقوا بين الإيمان بوجود إله خالق للعالم وبين العلمانية التي ترى العالم مكتفياً بذاته، فتحصر تدبير الاجتماع البشري في سلطة البشر المتحررة من شريعة الله.

وكان هذا التوفيق مؤسساً على التصور الأرسطي المتعلق بعمل الإله بالعالم.. فالإله، في التصور الأرسطي، واحد، مفارق للعالم، وخالق له، لكنه قد أودع في العالم وطبيعته الأسباب التي تدبرها تدبيراً ذاتياً دونما حاجة إلى تدخل إلهي، أو رعاية إلهية فيه بعد مرحلة الخلق «فالحركة توجد في الشيء بذاته وبدونه، لا من حيث أن شيئاً خارجياً هو الذي يحدث فيه هذه الحركة»، والعناية الإلهية موقوفة على ذاته»

ولا تتدخل به في الأحداث الجزئية في العالم والطبيعة »[1] فالعالم مكتف بذاته ، يدبره الأسباب المودعة فيه ، وهو وحده مصدر المعرفة والحكمة ، بقدرة المراهنة والتجريب ، فالتدبير الذي هو مرجعيته الإنسان بالعقل والتجربة ، دون رعاية أو تدبير أو تدخل من السماء . هكذا استبعدت العلمانية ، في تأسيس « فلسفتها » ، على التصور الأرسطي للصانع غير المدبر للعالم ، فهو مجرد خالق ، فرغ من الخلق وانحصرت علاقته به ، دونما رعاية أو تدبير للمخلوقات ، كصانع الساعة ، الذي أودع فيها أسباب عملها ، دون حاجة لوجوده معها وهي تدور !.. وساعد العلمانية على الانتصار لهذه النزعة ، التصور المسيحي لعلاقة الدين بالدولة ، فهو تصور يدع ما لقيصر لقيصر ، ويقف بالدين عند خلاص الروح ومملكة السماء ، دون أن يقدم شريعة للمجتمع والدولة ، الأمر الذي جعل الساحة الدنيوية في الكنيسة وفي الضمير الغربي « ثورة تصحيح ديني » وليس عدوانًا على الدين !

وساعدها على ذلك أيضًا أن التراث الروماني في الفلسفة والتشريع والتقنين ، قد جعل الفلسفة ، عبر فلسفة القانون الروماني والأخلاقية ، وشريعته الدنيوية ، هي البديل . فكان الطريق إلى العلمانية ... مفتوحًا أمام العلمانية ، يزكيه هذا التراث !

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي [موسوعة الفلسفة] مادة ... ص [illegible]
[illegible] ١٠٦ طبعة بيروت سنة ١٩٨٤ م .

هكذا نشأت العلمانية في سياق التنوير الوضعي الغربي، لتمثل عزلاً للسماء عن الأرض، وتحررًا للاجتماع البشري من ضوابط وحدود الشريعة الإلهية، وحصرًا لمرجعية تدبير العالم في الإنسان، بعقله المستقل في تدبير عالمه ودنياه.. فهي ثمرة من ثمرات عقلانية التنوير الوضعي، التي أحلّت العقل والتجربة محلّ الله والدين، وهي قد قامت مع [illegible] في تدبير العالم.. فلسفة معرفية [illegible] وحده من أدوات التنوير الغربي.. فلم يعد الإنسان بحاجة إلى الله في "الأيديولوجيا" [illegible] التي قامت فلسفتها "الإبستمولوجية" (المعرفية) تكرّس نفي [illegible] بين عنصرين من زوج ثنائية عنصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكويني، وعنصر موسوعة فلاسفة التنوير [illegible] كي يحمي [illegible] عنصر العقل وهيمنته [illegible] الإلهية [illegible] غيبيته. وأصبح الحكم [illegible] وحي مشرقي.. الذي يتعلق بحكمة [illegible](1) بعزل السماء عن الأرض، والدين عن الدنيا، وإحلال الإنسان في تدبير العمران البشري محل الله.

(1) إميل بولا: [illegible]

وفود العلمانية في ركاب الغزوة الاستعمارية

ولقد كانت غزوة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] لمصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] قد مثلت بداية الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لوطن العروبة - قلب عالم الإسلام - بعد أن سبق هذا الاستعمار حروب هذا الغرب الصليبية عبر أربعة قرون(١).

لكن هذه الغزوة قد تميزت عن سابقتها الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ - ١٠٩٦ - ١٢٩١م] باستهدافها احتلال العقل، واستبدال الفكر، وتغيير الهوية - مع احتلال الأرض، ونهب الثروة، واستعباد الإنسان(١). فكانت العلمانية واحدة من الوافد الغربي في ركاب الغزاة.

وللمرة الأولى تترجم الكلمة الفرنسية laïque بكلمة «علماني» في المعجم الفرنسي العربي الذي صدر سنة ١٨٢٨م، والذي وضعه «لويس بقطر المصري» - الذي خدم جيش الاحتلال الفرنسي بمصر، ثم رحل معه، ليدرس العامية المصرية في مدارس باريس(١). ترجمت «اللائكية» بالعلمانية. من «العلم» - نسبة إلى «العالم» باعتبار «الدنيا» المقابلة «للدين»(١).

---

(١) د. سيد أحمد فرج «جذور العلمانية» ... ص ١٠١ - ١١٠ - سنة ١٩٨٦م.

وفي كل موقع من بلاد الإسلام قامت فيه للاستعمار الغربي سلطة ودولة، أخذ هذا الاستعمار شيئًا فشيئًا يحل شرعة العلمانية في تدبير شؤونه وحكم المجتمع وسلطته محل الشريعة الإسلامية، ويزرع القانون الوضعي العلماني حيثما يضيع شريعة الإسلام وفقه معاملاتها.

ففي الجزائر وتونس، أخذ الاستعمار الفرنسي في إحلال القانون الوضعي العلماني محل الشريعة الإسلامية وقانونها وكانت مصر... القانون الوضعي العلماني يحدث عند ... [١٢٦١ - ١٣١٣هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م] فيقول: ... دولة من دول ... تدخل بلدًا شرقيًا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية وتنادي أول دخولها بأنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد. ثم تأخذ في تغيير الأساس شيئًا فشيئًا

كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس، حيث سنت لهم قانونًا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي، بل تنسخ مقابلها من أحكامه. ونشرته في البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترتضاهم. ولما لم تجد معارضًا أخذت تحوّل كثيرًا من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام، توسيعًا لنطاق النسخ الديني. ولم تلبث أن

جاريناها - [في مصر] - وأخذنا بقانون يشبهه »[1]

فالقانون العلماني يتم النسخ الديني، والمسخ لشريعة الإسلام!

ومع القانون العلماني – الوضعي – الذي لا يضبط المصلحة بالشرع، ولا يحكم حقوق الإنسان بحقوق الله وحدوده، جاءت الغزوة الاستعمارية الغربية إلى بلاد الإسلام بمفهوم الحرية الإنسانية المتحررة من الضوابط الشرعية، والمؤسس على أن الإنسان هو سيد العالم ومرجع التدبير للعمران - وليس على المفهوم الإسلامي للاستخلاف، الذي يضبط الحرية الإنسانية بالشريعة الإلهية، التي هي معالم التدبير الإلهي للاجتماع الإنساني، والتي هي بنود عقد وعهد الاستخلاف الإلهي للإنسان...

وعن هذا المفهوم العلماني للحرية الذي يقتضي - بعبارة عبد الله النديم - « بعدم تعرض أحد لأحد في أموره الخاصة » يقول النديم في نقده - وفي بيان فلسفته الإسلامية -: « إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق، والوقوف عند الحدود. وهذا الذي نسمع به ونراه رجوع إلى البهيمية وخروج عن حد الإنسانية.. إنها حرية مدنية يفر منها البهيم.. ولئن كان ذلك سائغا في أوربا، فإن لكل أمة عادات

(١) مجلة (الأستاذ) العدد الثاني والعشرون ص ٥١٥ بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٣١٠ هـ ١٧ يناير سنة ١٩٨٣ م

وروابط دينية أو بيئية. وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم. وهي لا توافق عوائد أهل الشرق ولا أديانهم. والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يحيي أو يغري بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة عندها»[1]

بدأت تتسلل هذه العلمانية إلى الشرق العربي، وتحتل فيه مؤسسات القضاء والتشريع، فقد سبق أحيانًا الاحتلال العسكري المباشر والسيطرة الاستعمارية السافرة، وذلك عندما بدأ في تزايد النفوذ الاستعماري في بلادنا. وأصبحت الجاليات الأجنبية فيها ... فكانت تمهيدًا للاحتلال والاستعمار[1]

ففي مصر، على عهد الخديوي سعيد [١٢٣٧ - ١٢٧٩هـ ١٨٢٢ - ١٨٦٣م] صدرت «إرادة»[2]. في ١٢ شعبان سنة ١٢٧٢هـ ١٨ إبريل سنة ١٨٥٥م، بإنشاء «محكمة تجارية «مجلس تجار» مختلط من المصريين والأجانب، لتقضي في المنازعات التجارية التي يكون الأجانب طرفًا فيها»[3] فكان الاختراق العلماني لمؤسسة القضاء، ومع تزايد النفوذ الأجنبي، أصبحت للأجانب الأغلبية في عضوية

---

(١) المصدر السابق [illegible] ص ٤٣٥ [illegible] ص ٢٠٩.

(٢) أمين سامي باشا [تقويم النيل] المجلد الأول من الجزء الثالث ص ١٦٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٦م.

محكمة [قومسيون مصر]. ثلاثة مصريون، وأربعة أجانب.[1]

وبعد أن تعددت « المحاكم القنصلية » التي يقضي فيها قضاة أجانب بالقانون الأجنبي، في المنازعات التي يكون أحد طرفيها أجنبيًّا. حتى بلغت ـ في ظل الامتيازات الأجنبية ـ سبع عشرة محكمة. « نُظمت هذه الفوضى » القانونية والقضائية سنة ١٨٧٥م بإنشاء « المحاكم المختلطة ». وهي التي تقضي في المنازعات بين المصريين والأجانب « بالقانون المدني » العلماني. واللغة الفرنسية، وأغلبية قضاتها أجانب، والرئاسة فيها للأجانب.. وفي دوائرها الجزئية، ذات القاضي الواحد، ينفرد القاضي الأجنبي بالحكم، وكذلك في دوائر الأمور المستعجلة، والوقتية، والبيوع، ونزع الملكية العقارية.[2]

فتم الاختراق العلماني لمؤسستي « القضاء » و« التشريع » معًا. « إذ لم يقتصر النظام المختلط على إنشاء قضاء أجنبي ينفذ الأحكام على الرعايا الوطنيين وعلى حكومة البلاد، بل خوّل الدول الأجنبية حق التدخل في التشريع الذي يسري على رعاياها. »[3]

---

(١) عبد الرحمن الرافعي [عصر إسماعيل] ج ١ ص [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨م

(٢) المرجع السابق. ج ٢ ص ٢٤٢، ٢٤٣

(٣) المرجع السابق. ج ٢ ص ٢٤٩

بل إن [illegible]

[illegible] « Von Bemmelen » [illegible] ويعد

الاغتصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء » . ووصف

المحاكم المختلطة . [illegible] بأنها ركن قوي من أركان

السيطرة الأوربية على مصر »(١)

[illegible]

[illegible] ١٢١٦ .

١٢٩٠ هـ [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

« مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل

لما أخلّت بالحقوق ، لتوقيفها على الوقت والحالة . ومن أمعن

النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم

الوسائل النافعة من المنافع العمومية . حيث بوبوا للمعاملات

الشرعية أبوابًا مستوعبة للأحكام التجارية ، كالشركة ،

(١) [illegible]

ج ١ ص ١١٨ ، ٢٠٥ طبعة سنة ١٨٨٢

والمضاربة ، والقرض ، والمخابرة ، والعارية ، والصلح ، وغير ذلك . إن بحر الشريعة الغراء على تفرع مشارعه ، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري ، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية ، لأنها أصل ، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع .. »[1] .

ثم تجد « صيحة التحذير » التي أطلقها الطهطاوي ، في مواجهة الاختراق العلماني لمؤسسات القضائية والتشريعية بل جاء « عموم سوى الاختراق » عندما حل الاحتلال بمصر [١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م] في بعد ... ، عمم الاحتلال القانون الأجنبي في عموم المحاكم الأهلية المصرية في ٢٤ جمادى الثاني سنة ١٣٠٠ هـ ، مايو سنة ١٨٨٣ م صدر القانون المدني ، والقانون التجاري ، وقانون التجارة البحري ، وقانون المرافعات على حالها لدى كل منها في المحاكم المختلطة - وصدرت قوانين العقوبات ، وتحقيق الجنايات مع بعض التعديلات ... ١٣ نوفمبر سنة ١٨٨٣ م حتى كانت

(1) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج ... ص ٥٤٤ ، ٣٠٤ ... دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

[illegible] في [illegible]

وإذا كان الطهطاويّ قد أشار إلى [illegible] مبادئ الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها [illegible] على [illegible] الإسلامي ، في مواجهة الاختراق العلماني [illegible] محمد قدري باشا [١٢٣٧ - ١٣٠٦ هـ ١٨٢١ - ١٨٨٨ م] [illegible] في تقنين هذا الفقه الإسلامي [illegible] الإسلامي

١ - كتاب [مرشد الحيران في معرفة أحوال الإنسان] في المعاملات الشرعية

٢ - وكتاب [قانون العدل والإنصاف للقضاء على مشكلات الأوقاف]

٣ - وكتاب [تطبيق ما وجد في القانون المدني موافقًا لمذهب أبي حنيفة] .

٤ - وكتاب [الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية] (٢)

[illegible] الإسلامية [illegible]

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

غربية علمانية للقانون ومؤسسات القضاء والتشريع في البلاد.

وعلى هذا الدرب، الذي حققه الفيلسوف «الإصلاح بالإسلام» والتجديد الديني بالتجديد الديني، سار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] [illegible] المدنية [illegible] مدنية أوربا [illegible] «مدنية الذهب والفضة»(١)

ووصف المنهج الذي تميز الإسلام به بأنه «طهر، لا روحانيا مجردًا، ولا جسدانيًا جامدًا، بل إنسانيًا وسطًا بين ذلك، آخذًا من كلا القبيلين بنصيب، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره. وصار المدرسة الأولى التي يرقى فيها المرتادون على سلم المدنية ولذلك جمع بين الدين والشرع فلم يعرف ما يسميه الإفرنج «تيوكراتيك» أي سلطان إلهي وفي ذات الوقت لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يكون كمالًا للشخص وألفة في البيت، ونظامًا للممالك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه»(٢)

ثم حكم بأن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا

---

(١) [الأعمال الكاملة] ج ٣ / ٥ [illegible]
سنة ١٩٩٤ م

(٢) المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٨٧ [illegible]

مدفوعة عنها. فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين - [أي العلمانية] - هو بذر غير صالح لتربة، لا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه.. فما لم تكن المعارف والآداب مبنية على أصول الدين فلا أثر لها في النفوس.. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!..»[1]

لقد صنعت مدرسة الإحياء والتجديد الديني - التي قادها جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] وأعلى بنيانها محمد عبده - وحملت رسالتها [بمصر] الشيخ رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م] على مدى نصف قرن.. وصنعت رسالة المقاومة للاختراق العلماني، التي حملتها من بعد جماعات اليقظة الإسلامية وحركاتها، التي نقلت بهذه المقاومة - بعد سقوط الخلافة [١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م] - من إطار «الصفوة» إلى إطار «الجماهير».

* * * *

(١) المصدر السابق - ج ٣ ص ١٠٩، ٢٢١.

الأصول الإسلامية لرفض العلمانية

وإن كان التصور الأساسي لحقيقة عالم الذات الإلهية هو الحلول الذاتي الروحية وشعور العالم والطبيعة والعمران الإنساني وهو التصور الذي يقوم عليه الفكر الغربي الذي يرى أنه لا يمكن للعقل البشري ذات تحوي من الله في هذا العالم ... فلسفة التشريع الروماني التي تجعل المقاصد للتشريع تحقيق المنافع والمصالح الدنيوية ، لا علاقة لها بالأخلاقيات الدينية أو القيم الإيمانية أو السعادة الأخروية - ..

إذا كانت هذه التصورات والفلسفات في الموروث الحضاري الغربي ، قد فتحت الطريق أمام إقصاء العلم الإلهي عن مسالك الكنيسة وحكم اللاهوت في السياسة والدولة والاجتماع والمعارف والعلوم ، بحسبان العلمانية هي نقل السلطة من السماء إلى الأرض ، وتحرير العمران الإنساني من السلطة الدينية ، وتقنين حرية الإنسان في سياسة المجتمع كما يكون ، بحسبان هذه العلمانية هي الأوفق للتصور الأساسي لحقيقة عالم الذات الإلهية ، والامتداد المترتب لتراث الفكر الفلسفي ، والفلسفة التشريع الروماني في تحرير القانون من القيم الإيمانية والمقاصد الشرعية

إن كان هذا هو الحال بالنسبة في النموذج الحضاري الغربي

فإن أمره ليس كذلك في السياق الإسلامي.

فالتصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية يتعدى حدود الخلق للمخلوقات إلى حيث يكون الله - سبحانه وتعالى - أيضًا الراعي والمدبر لكل عوالم وأمم وعمران المخلوقات.

لقد سفّه القرآن الكريم التصورات الوثنية الجاهلية - الشبيهة بالتصور الأرسطي - لنطاق عمل الذات الإلهية، فهو في التصورين مجرد خالق، ليس له تدبير العالم والعمران موكول - في الأرسطية - إلى الأسباب والأسباب المودعة في الطبيعة وظواهرها - وهو - في الوثنية الجاهلية - موكول إلى الشركاء والأصنام والطواغيت.

سفّه القرآن الكريم هذا التصور عندما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨] فالخلق لله، والتدبير لغير الله في التصور الجاهلي المرفوض ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]

لهذه القسمة، الشبيهة بالمفهوم العلماني لشعار «... ما لله لله وما لقيصر
للجميع؟ إنها هي سوء حكم المحللين بسبب جهلهم بالغرب وبرفضهم التصور
الإسلامي المطلق لعلاقة الذات الإلهية ... وفي مقابل ذلك يقدم الإسلام
تصوره المطلق لعلاقة الذات الإلهية خالق كل شيء، ومدبر كل أمر،
حتى ما هو مقدور للإنسان، وداخل في نطاق قدرته وإرادته وفعله هو
فيه خليفة لله سبحانه وتعالى، يدبره الإنسان بإرادته الإلهية وتكليفه
الشرعي كخليفة لله مقيد بشريعته التي تمثل بنود عقد وعهد
الاستخلاف، وكعقد لسيد الوجود. ويمثل كسبيل هذا الوجود قمة
في التصور الإسلامي الخلق والتدبير جميعًا ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا
مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: 3] ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54] ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي
أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 49، 50]. فليس التصور
الإسلامي لعلاقة الذات الإلهية بالدين يحدد نطاق علاقة الله في
مجال وحده، مجال الطبيعة والعلم والحياة والإنسان من علاقة
... للتدبير الإلهي والرعاية الإلهية هو ما المحسوسات ... فكل
شيء، في هذا التصور الإسلامي، هو لله. حتى ما هو للإنسان فهو

له بحكم الاستخلاف و[illegible] ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. ولكن [illegible] وحدها معبرة عن إيمان المسلم بالحضور والتدبير الإلهي في كل شيء.. حتى لتبلغ الحرية [illegible] العبودية لله؟! [illegible].. لقد [illegible].

[illegible] في [illegible] الأرض [illegible] في الأمر [illegible] [illegible] والإرادة والقدرة [illegible] إقامة الدين وصناعة العمران [illegible] ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [illegible] ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

هكذا يقف التصور الإسلامي [illegible] [illegible] في [illegible] مدبر لكل شيء [illegible] [illegible] الأرض وتحرير [illegible] حدود [illegible]

وكما [illegible] في

التصور الصادق العملي للذات الإلهية ، ومن ثم في مكانة الإنسان في هذا الوجود . كما كانت الثمرات الفلسفية للتشريع في النسق القانوني الإسلامي — سواء في مبادئ الشريعة الإسلامية وقواعدها ومقاصدها التي هي « الوضع الإلهي » — أو في الفقه ومعاملاته الذي هو إبداع الفقهاء الإنسانيين المحكوم بمبادئ الشريعة وقواعدها وحدودها ومقاصدها — الثمرات الفلسفية للإسلام في التشريع عندما ربطت « المنفعة » بـ « الأخلاق » و « المصلحة » بـ « المقاصد الشرعية » و « السعادة الدنيا » بـ « النجاة يوم الدين » . فأعطت هذه الفلسفة التشريعية الإسلامية الطريق أمام القانون الوضعي [illegible] المكانة المتناسبة مع النص التشريعي الذي يحكم سلطات الأمة في تقنين السيادة الحاكمية للوضع الإلهي المحدود بالشريعة ومبادئها وقواعدها ومقاصدها . فالمصلحة التي يعتمدها القانون الإسلامي هي « المصلحة الشرعية المعتبرة » ، وليست مطلق « المصلحة » و « المنفعة » التي يراها الفقه الإسلامي حسبما تمليه اللذة أو الشهوة أو مطلق المنفعة ، بالمعايير الدنيوية الخالصة للناس ، ذلك لأن المسلم لا يخلص لله « صلاته » و « نسكه » فقط ، وإنما يخلص له ، مع الصلاة والنسك ، جماع المحيا والممات ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا

أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

وهذه الحقيقة من حقائق تميز فلسفة التشريع والتقنين الإسلامية عن غيرها الوضعية والغربية .. هي محل إجماع علماء أهل العلم ، مسلمين وغير مسلمين .. ويكفي أن نشير إلى شهادة مستشرق حجة في القانون الغربي العلماني وفي الفقه الإسلامي .. هو « دافيد سانتلانا » David de Santillana [١٨٤٥ - ١٩٣١ م] فهو يقول عن فلسفة التشريع في القانون الوضعي الغربي : « إن معنى كلمة القانون بالنسبة إلينا الآن مجموعة من القواعد المستندة التي أقرها الشعب ، إما مباشرة أو عن طريق ممثليه وسلطانه مستمد من إرادته وإدراكه وأخلاق البشر وعاداتهم » .

فهو قانون « دنيوي » أي « علماني » خالص بطبيعته .

ويستطرد « سانتيلانا » مقرراً هذه الفلسفة العلمانية بالفلسفة الإسلامية في التشريع ، فيقول : « إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك .. فالخضوع للقانون الإسلامي هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه ، ومن ينتهك حرمته لا يأثم نحو المجتمع فقط ، بل يقترف خطيئة دينية أيضاً . فالنظام العلماني والديني ، والقانون والأخلاق ، هما شكلان لا ينفك بينهما لتلك الإرادة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتوجيهه ،

فكل مسألة قانونية إنما هي مسألة ضمير ، والصفة الأخلاقية تسود القانون فتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيداً تاماً والأخلاق والآداب ، في كل مسألة ، ترسم حدود القانون فالشريعة الإسلامية شريعة دينية تعالج الفكر أصلاً » (١).

وهذه الحقيقة يؤكد عليها المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار الذي ينبه على تميز القانون الإسلامي عن القانون الوضعي العلماني في المصدر وفي المقاصد فيقول : « ومن المفيد أن نذكر فروقاً جوهرية بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأوربية الحديثة ، سواء في مصدريهما المختلفين أو في أهدافهما النهائية ؛ فالمصدر للقانون في الديمقراطية الغربية هو إرادة الشعب ، وهدفه تنظيم وتطوير ذلك المجتمع . أما في الإسلام ، فالقانون صادر عن الله ، وهذا يعني بتعبير الهدف الأساسي الذي ينشده المؤمن هو البحث عن الطريق إلى الله ، باحترام الوحي والتقيد به . فالسلطة في الإسلام غرض خاص من المعايير الأخلاقية . بينما تسمح في الصيغة الغربية أن يختار الناس المعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة في عصرهم » (٢).

---

(١) سانتيلانا [القانون والمجتمع] بحث في كتاب [تراث الإسلام] ص ٤٠٨ ، ٤٣١ . ترجمة جرجيس فتح الله طبعة بيروت سنة ١٩٧٢

(٢) د . محمد عبد [illegible] [الإسلام في نظر غربي] [illegible] ص [illegible] ٨٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م

وهكذا تحول فلسفة [illegible] للشرع الإسلامي بين المسلم وبين قبول التحول العلماني . كما تحول المجتمع الإسلامي [illegible] إليه . وهكذا [illegible] في كون [illegible] المسلم وبين قبول العلمانية [illegible] واختلافاً .

• • •

ولأن هذه هي حقيقة تميز النسق الفكري الإسلامي – المنطلق من [illegible] الإسلامية لانفلات « الدولة » من « الدين » ولتحرر « المجتمع » من « الشريعة » [illegible] في التراث الإسلامي [illegible] الوافدة إلينا في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة .

فالعقد الدستوري ، الذي تقوم به « الدولة » ، ليس مجرد تراض بين « المحكومين » و« الحاكمين » ، كما هو الحال في الفكر السياسي الوضعي ، وإنما لابد في هذا العقد الدستوري ، لكي يكون إسلامياً ، من أن يكون [illegible] الوحي الإلهي [illegible] الإسلامية [illegible] الإسلامية [illegible] الدستوري [illegible] شرعي . والوضع الذي [illegible] [illegible] في آيات سورة النساء : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ

اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٥٨ - ٦٠].

١ - فعلى ولاة الأمر أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل بين الناس.

٢ - وعند ذلك لهم الطاعة من المؤمنين.

٣ - وطاعة المحكومين لأولي الأمر تابعة لطاعتهم لله والرسول، أي للكتاب والسنة.

٤ - والشرط الحتمي والكاشف لإيمان المؤمنين بالله واليوم الآخر أن تكون مرجعيتهم في التعاقد الدستوري هي الكتاب والسنة، وإلا كان هذا الإيمان زعما وادعاء، لأنه إن لم تكن المرجعية في التحاكم لله والرسول، فهي للطاغوت !.

هكذا حسم القرآن المرجعية الإسلامية للدولة الإسلامية.

وعندما صاغ رسول الله ﷺ هذا النص القرآني المرجعية الدينية في التعاقد الدستوري على وثيقة مدونة - الصحيفة « الكتاب » في أول دستور لأول دولة إسلامية - في « الصحيفة » التي مثلت دستور دولة

المدينة نص على أن وما كان بين أهل هذه الصحيفة من اشتجار يخشى فساده، فمرده إلى الله وإلى محمد ﷺ [١].

وأكد ذلك الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة له عقب اختياره وبيعته له بالخلافة، فقال: « **أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم** ». فجمع بذلك بين الإسلامية المدنية التي جعلت المرجعية الدينية شرط قيام واستمرار العقد الدستوري على أساسها في التجربة التاريخية – التي غلب عليها المسلمون – بين هذا الربط في الحكم. وتوضح هذه الحقائق تميز دولة الإسلام عن كثير من الدول التي عرفتها كثير من الأنساق الفكرية الأخرى.

لقد عرف التاريخ الإنساني:

١. دول الاستبداد التي تحكم بالهوى والشهوة والقوة.

٢. ودول الكهانة الدينية، والعصمة المقدسة، والحكم بالحق الإلهي وفيها زعم الحكام النيابة عن السماء، وتفويض الأمة من الحساب.

٣. ودول السياسة العقلانية، ومنها الدول العلمانية، التي يدير حكامها مجتمعاتها بسياسة العقل والمصلحة المتحررة من المرجعية الدينية.

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص [illegible] جمعها وحققها د. محمد حميد الله الحيدر آبادي، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

ويغيب عن صاحب هذا النمط من الدولة، ينوب فيها بحكمه عن الأمة، فيقصي الدين والشريعة الإلهية من مرجعية السياسة والتدبير.

٤- أما الدولة الإسلامية، فإنها نمط متميز وفريد.. فهي إسلامية المرجعية، ومدنية النظم، التي تقاس إسلاميتها بمدى تحقيقها للمقاصد الشرعية.. وفيها تجتمع المرجعية الدينية- سيادة الشريعة- وسلطة الأمة- المستخلفة لله- ونيابة الدولة عن الأمة وبذلك تبرأ من سلبيات دول الكهانة الدينية والدول العلمانية جميعًا.

وكما استقر هذا التميز للدولة الإسلامية في أصول الدين، وفي دولة النبوة والخلافة الراشدة، فلقد استقر كذلك في الفكر الإسلامي، السابق على ظهور العلمانية الغربية، وعلى عصر اختراقها للعالم الإسلامي، وعند مقدمي فكرنا الإسلامي الحديث لهذا الاختراق.

والعلامة ابن خلدون [٧٣٢-٨٠٨ هـ ١٣٣٢-١٤٠٦م] فيلسوف العمران الإسلامي والإنساني الذي صاغ كل ذلك، في دقة ووضوح، وهو يتحدث عن أنواع الحكم والسياسات والدول، فقال: «ولما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر... وجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها.

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة

وبصرائها كانت سياسة عقلية.

وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها، كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم، فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة، حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع. فما كان من الملك بمقتضى القهر والتغلب فجور وعدوان ومذموم عند الشارع، كما هو مقتضى الحكمة السياسية. وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً، لأنه نظر بغير نور الله ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ [النور: ٤٠]، لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم، من ملك أو غيره، وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ [الروم: ٧]، ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم، وهم الخلفاء.

فقد تبين لك من ذلك [illegible]

١ ـ الملك الطبيعي : هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة .

٢ ـ والسياسي : هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار .

٣ ـ والخلافة : هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة . فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به (١) .

فالدولة [illegible] هي التي تسوس المجتمع بمقتضى السياسة العقلية [illegible] التي تقف عند « تحصيل المصالح الدنيوية وحدها » !

بينما الدولة الإسلامية ، هي التي تنطلق من الشرع ، لتحقيق صلاح الدنيا والآخرة جميعاً [illegible]

الشرع » [illegible] الإسلامية [illegible]

وكما يقول الإمام الغزالي [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م] :

« فإن العقل مع الشرع نور على نور » (٢) .

• • •

(١) [المقدمة] ص ١٥٠ ، ١٥١ . طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

(٢) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ٣ طبعة القاهرة [illegible]

تلك هي «العلمانية»: التوجه.. والنشأة.. والملابسات..

وهكذا كانت وفودها على عالم الإسلام في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة.. واخترقت مؤسسات القضاء والتشريع في بلادنا..

وهذا هو موقف الإسلام والفكر الإسلامي منها، سواء في اجتهادات تيار الإحياء والتجديد الحديث.. أو في الأصول والمصنفات الإسلامية.. أو في [illegible] الفكر الإسلامي [illegible]

المتغربون... العلمانيون

أما الذين انبهروا من مثقفينا المحدثين بالعلمانية الغربية، فسوف [illegible] في بيئتنا، كما حدث [illegible] في بيئتهم [illegible] عن علاقة الدين [illegible] والدولة والمجتمع [illegible]

«يا بعد ما بين السياسة والدين»(1)

و«إن السياسة شيء والدين شيء آخر.. وإن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الأوطان»(2). لقد كانوا هم الذين نظروا إلى الإسلام [illegible] مصريّ.. فساروا في علاقة الدين بالدولة والسياسة بين الإسلام والمصرية كما نظروا إلى تراث [illegible] بعض المشرقي

(1) علي عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م.

(2) د. طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] ج١ ص [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م.

والمسلم » لدى أتباع هذا التيار وضيع عنده الحضارة ، بمنظار غربي . ورأوا الخلافة الإسلامية « كهنوتية مستبدة تحكم بالحق الإلهي المقدس » . ورأوا في عقل المسلم عقلاً يونانياً ، منذ القدم ، وبعد التدين بالإسلام ، لأن القرآن عندهم كالإنجيل ، والإسلام عندهم كالنصرانية ، ومحمد ﷺ عندهم كان كالمسيح من رسل ، لا شأن له بسياسة الدولة أو تدبير الاجتماع وشؤون العمران ؟

فقد « صُرِّفت » عقولهم في « مصانع الفكر الغربي » ، فقالوا :

إن العقل الشرقي هو – كالعقل الأوروبي – مردّه إلى عناصر ثلاثة :

« حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن

وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه .

والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان »

وكما لم يغير الإنجيل من الطابع اليوناني للعقل الأوروبي فكذلك القرآن ، لم يغير من الطابع اليوناني للعقل الشرقي ، لأن القرآن إنما جاء متممًا ومصدقًا لما في الإنجيل (١) . وإن الحضارة العربية والحضارة الفرنسية يقومان على أساس واحد ، هو في نهاية الأمر الحضارة اليونانية اللاتينية (٢) ...

---

(١) المرجع السابق . ج ١ ص ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ .

(٢) د. طه حسين [من الشاطئ الآخر] نصوص فرنسية في الثقافة والحضارة =

لقد شوهت المناهج الغربية رؤاهم ، وزيفت وعيهم ، فرأوا إسلامنا نصرانية .. وخلافتنا كهانة .. وقرآننا إنجيلاً .. وشريعتنا قانونًا رومانيًا .. ومن ثم رأوا « الحلَّ العلمانيَّ » هو طريقنا إلى النهوض ، كما كان حاله في سياق النهضة الأوربية الحديثة .

وإذا كان هذا « التغرب » أمرًا قابلاً « للتفسير » ، دون « التبرير » .. فإن الأمر الذي يبلغ في الغرابة حد « الكارثة » هو الموقع الذي قادت إليه العلمانية بعضًا من مثقفينا الذين تمذهبوا بمذهبها .. موقع التبعية للحضارة الغربية الغازية ، والولاء للمركزية الغربية العنصرية .. بل وإعلان التسليم والاستسلام لإرادة الغرب في استلابنا واحتوائنا وإلحاقنا بنموذجه الحضاريّ « في الإدارة .. والحكم .. والتشريع » .. وإلا فماذا تعنيه كلمات الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] : « **لقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب ونسلك مذهبها في الحكم ، ونسير سيرتها في الإدارة ، ونسلم طريقها في التشريع . التزمنا هذا كله أمام أوربا . وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال - [سنة ١٩٣٦ م] - ومعاهدة إلغاء الامتيازات - [سنة ١٩٣٨ م] - إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأننا**

= بعد وفاته - جمعها وترجمها : عبد الرشيد الصادق المحمودي . ص ١٩١ ، ١٩٢ . طبعة بيروت سنة ١٩٩٠ م .

سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع ؟ » [١] .

إن هذا « الاعتراف » العلمانيّ « بالالتزام » بما ألزمنا به الغرب ، من أن « نسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع » .. ينقل قضية تبني العلمانية في بلادنا إلى مستوى آخر .. فالقضية تتجاوز أحيانًا دائرة الاختلاف في الفكر ، لتصب - بوعي أو بغير وعي - في خانة التفريط في الاستقلال ؟ ! .. وإذا كان الدكتور طه حسين قد تجاوز هذا الانبهار بالغرب ، والالتزام بما سعت أوربا إلى إلزامنا به [٢] .. فإن كلماته هذه تذكرنا بكلمات موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني ، التي قال فيها : « لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها .. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم » [٣] ؟ !

فإسلامية الدولة .. وإسلامية القانون ، فضلاً عن أنهما من فرائض الإسلام ، فإنهما من معالم الاستقلال الحضاريّ للأمة الإسلامية ولديار الإسلام .

---

(١) [مستقبل الثقافة في مصر] ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) انظر كتابنا [الإسلام والسياسة] ص ١١٨ - ١٣١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .

(٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٦ ، ١٩٧ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

موضوعات الكتاب

هذا الكتاب

إن الدعوة إلى الإسلام هي دعوة للإيمان بكل النبوات والرسالات.
فنحن عندما ندعو اليهودي إلى الإسلام، فإننا ندعوه إلى الصعود على سلم التدين، وإضافة الإيمان بالنصرانية وبالإسلام إلى إيمانه باليهودية ومقدساتها
ونحن عندما ندعو النصراني إلى الإسلام، فإننا ندعوه إلى أن يضيف الإيمان الإسلامي إلى إيمانه باليهودية والنصرانية
فالدعوة إلى الإسلام هي دعوة إلى كمال الدين والشرائع التي تفرعت من ملة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام
وعلى العكس من ذلك التهويد والتنصير
فالنصراني الذي يرتد إلى اليهودية إنما يكفر بالنصرانية ومقدساتها
والمسلم الذي يرتد إلى النصرانية إنما يكفر بالإسلام وبرسوله.
وهكذا يكون الفارق بين الإضافة والصعود.. وبين النقص والنكوص
وصدق الله العظيم: (قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور).

د. محمد عمارة

مكتبة الإمام البخاري
للنشر والتوزيع

مصر - الإسماعيلية - [illegible]
ت [illegible]